من وحي الصوم :

عشـــاق الطعام !!

للشيخ محمد رجب البيومي

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

النهار طويل ممل ، والقيظ لافح محرق ، وقد هجم رمضان والعاشق النهم لا يعذر في محبته . فكم من أكول هده العشق ، وبراه الوجد ، ثم هو لا يقدر على التصريح بما يختلج في صدره لما وقر في نفسه أن القلب لا يتسع للطعام والغرام ، وقد يكون نبيهاً فطناً ، فيحاول أن يوفق بين نهمه وولهه فيأتي بما يسميه البديعيون حسن التعليل ، كأن يقول :

وإن طعاماً ضم كفي وكفها لعمرك عندي في الحياة مبارك
فمن أجلها أستوعب الزاد كله ومن أجلها أهوى يدي فأدارك

وأنا لا أدري لماذا تنكر الصبوة من هؤلاء ؟ ولهم عيون تنظر وقلوب تخفق !! ويخيل إليّ أن كراهية الناس للأكول جعلتهم يستنكرون جميع ما يأتيه ، ولو كان عادياً مألوفاً ، وإلا فهل من المنطق الصحيح أن يقول الشاعر في صديقه النهم :

ويعجبني من جعفر أن جعفراً ملح على قرص ويبكي على جُمَّل
فلو كنت عذري العلاقة لم يبت سميناً وأنساك الهوى كثرة الأكل

ثم ما هي العلاقة بين الحب والامتناع عن الطعام ؟ الحق أن هذا منطق غريب !

ومن جماعة الشرهين من يستغل ذاكرته القوية فيشحنها بشتى الأخبار والأحاديث فإذا استضافه إنسان أخذ يعرض معلوماته عرضاً ، فما يدع صغيرة أو كبيرة مما اختزنه في رأسه إلا كررها مثنى وثلاث ورباع ، فيضيف إلى ثقل بطنه ثقل حديثه ، وهنا يتضاعف البلاء ، وتمتد الكارثة ، وفي هذا الطراز المتكلم يقول حميد بن الأرقط :

يسطرون لنا الأخبار إن نزلوا وكلما سطروا للقم تمكين
باتوا وقصعتنا الصهباء بينهم كأن أيديهمو فيها سكاكين

والغريب أن ألسنتهم تنعقد عند الطعام فما يكادون ينطقون بكلمة واحدة ، بعد التشدق والتفيهق ، وكأن ازدحام المدة قد عطل مجرى التفكير ، وأوقف دولاب النطق — وقتاً ما — فغدا الأكول صنما لا يبين ، وصدق عليه قول القائل :

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بياناً وعلماً بالذي هو قائل
فما زال منه اللقم حتى كأنه من الهي لما أن تكلم باقل
تجهز كفاه ويحور حلقه إلى الزور ماضمت عليه الأنامل

ومن اطلع على هيئة هؤلاء في أثناء تناول الطعام أخذ منه العجب كل مأخذ فإن الدم ليحتقن في وجوههم فتربد ، وإن أيديهم لتسرع في القذف واللقم ، وإن أعضاءهم لا تستقر على حال من القلق ، حتى يبلغوا ما يريدون

« امتنع الحارثي عن مؤاكلة صديقه الأسواري فقيل له في ذلك ، فقال : ما ظنكم برجل نهش قطعة لحم فانقلع ضرسه وهو لا يدري ! وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عيناه ، وسكر ، وسدر ، وتربد وجهه ، وغضب ، ولم يسمع ولم يبصر ، فلما رأيته وما يعتريه ويعتري الطعام منه صرت لا آذن له ... الخ »

وقد أجاد ابن الرومي حين شبه هؤلاء بمن أصيبوا بالحمى فهم معها في تغير دائم ، وانفعال مستمر ، اسمعه إذ يقول :

تعلوه حمى شره ناهض لكن حمى هضمه صالب
كأنما الفرّوج في كفه فريسة ضرغامها دارب
ذي معدة تعلمها لاحس وتارة أرنبها ضاغب

وابن الرومي أقدر من غيره على الإجادة في هذا الفن فقد كان كما يقول صاحب زهر الآداب منهوماً شرهاً ، وكان جشعه من أسباب حتفه ، وله في المآكل وصف طويل ، فهو إذن ينطق عن خبرة وابتلاء ، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ، وأنت ترى وصفه للمنهومين ينبيء عن حصافة ، ويخبر عن دقة ووعي كقوله :

ألم تره لو شاء بلع تهامة وأجبالها طاحت هناك بلا أرش
على أنه ينمي إلى كل صاحب ضروساله تأتي على الصلب والهش
تخبر عنها أن فيها تثلما وذلكمو أدهى وآكد للجرش
ألم تعلمو أن الرحى عند نقرها وتجريشها تأتي على الصلب والهش

وهو في قوله هذا متخصص متفنن يغوص على المعنى الخفي ويأتي بالتعليل المطابق فيشبه الأسنان المثلمة بالرحى المجرشة ، في القدرة على الطحن والهضم ، وهو يذكرني بابن هانيء الأندلسي

فله فى هذا الباب كلام جيد . وإن كان إلى الوضوح أقرب منه إلى التعمق . ولكنه يلذ القارىء ويمتعه . ويوقفه على الحقيقة سافرة فى سهولة ورقة كأن يقول :

ياليت شعرى إذا أوحى إلى شه ... أحلقه لهوات أم ميادين
كأنها وحثيث الزاد يضرمها ... جهنم قذفت فيها الشياطين
لف الجداء بأيديها وأرجلها ... كأنما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة ... كأنما اختطفتهن الشواهين
أين الأسنة أم أين الصوارم أم ... أين الخناجر أم أين السكاكين
تبارك الله ما أمضى ألسنته ... كأنما كل فك منه طاحون

ونحب أن نعلن أن ابن هانىء كان قنوعا راضياً ولكنه يصف حالة رآها فقط دون أن ينطق عن ذات نفسه كابن الرومى ذلك الذى يرضى بالبطنة المرضة والكظة القاتلة ، معللا نفسه بزوالها بعد يوم فيقول مخاطباً لأمته فى شرهه :

دعينى قسطنطين آخذ شهوتى ... وتبشمنى أنى بذلك راضى
فأكثر ماأتاق من الزاد كظة ... مدى يومها واليوم أسرع ماض

ويخيل إلىّ أن الكظة لو استمرت معه طيلة حياته — لا يوماً واحداً كما يزعم — ما رجع عن نهمه العجيب !!

ويطول بنا البحث لو تقصينا ما ورد عن هؤلاء من النوادر وما قيل فيهم من رائع الشعر . ولكن أحب أن أنصفهم ببعض الشىء فأعلن أن شرههم هذا غريزة نفسية ركبت فى طبائعهم فهم معذورون حين يهجمون على الوائد ، وماذا عسى أن يصنعوا وأمعاؤهم تتلوى كالأفاعى القاتلة . لذلك نجد الكثيرين منهم يعلنون عن أنفسهم بالقول حتى لا يفاجئوا الناس بشرههم الجشع قبل التمهيد له . وأظرف ما قرأت فى هذا الموضوع ما حدث به معبد بن خالد الجدلى قال : خطبت امرأة من بنى أسد فى زمن زياد فجئت لأنظر إليها وكان بينى وبينها رواق فدعت بجفنة عظيمة من الثريد مكللة باللحم فأتت على آخرها ولأقت العظام نقية ، ثم دعت بشن مملوءة لبناً فشربته حتى أكفأته على وجهه وقالت : ياجارية ارفعى السجف فإذا هى جالسة على جلد أسد ، وإذا شابة جميلة ، فقالت يا عبد الله ، أنا أسدة من أسد ، وعلىّ جلد أسد ، وهذا طعامى وشرابى ، فعلام ترى؟ فإن أحببت أن تتقدم فتقدم ، وإن أحببت أن تتأخر فشأنك ، فقلت أستخير الله فى أمرى وأنظر ، قال فخرجت ولم أعد !!

ولعمرى إن هذه المرأة وأضرابها جديرات بالعطف والإشفاق ! ومن يدرى لعلها تكون خفيفة الظل فكهة الروح كالتى قالت لزوجها وقد أكلت حملا سمينا ، وأراد أن يتفشاها فلم يصل إليها مهلا فبينى وبينك بعير ! !

على أن الرجل لا يرحم امرأته إذا كانت مصابة بهذا الداء الفاجع ، وقد رأينا فى كتب الأدب أمثلة عديدة من الهجاء الفاحش الذى صب فوق رءوس النهمات الشرهات من الزوجات ، بل قد تجاوزهن إلى الأمهات على ما لهن من حرمة التربية والرضاع وحسبك أن يقول العجيف فى هجاء صاحبة الفضل الأول عليه

يا ليتها أمنا شالت نعامتها ... إما إلى جنة إما إلى نار
ليست بشبعى وإن أسكنتها هجراً ... ولا بريا وإن حلت بذى قار
تلهم الوسق مشدوداً أشظته ... كأنما وجهها قد ساح فى القار

وأمثال هذه الطعنات الجارحة لا تحصر فى طيات الأسفار !

* * *

وبعد فالطعام كما يقول الأستاذ البشرى فن جميل . وأبطاله النوابغ فنانون مطبوعون ، وقد جحدهم الناس ، وأنكروا ما لبطونهم من مواهب نادرة ، فلا أقل من أن ننصفهم بعض الشىء فنستغفر الله لهم فى شهر طالما حاربهم فى حياتهم ، ثم هاهو ذا يذكرنا بهم فى سباتهم العميق ...

(الكتب الجديد) محمد رجب البيومى

إدارة الهندسة القروية بالقليوبية

تعلن عن إصلاح دورتى مياه مسجدى عزبة القصيريين قسم شبرا مصر وهاشم أغا بمديرية محافظة مصر وقد تحدد ظهر يوم ٢٣ /٨/ ١٩٤٧ لفتح العطاءات وثمن الشروط والمواصفات جنيه مصرى واحد بخلاف مائة مليم بريد وتطلب من الادارة على ورقة تمغة ويمكن الاطلاع على الرسومات بالادارة بينها ٧٦٠٠